جامعة عين شمس
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

الأنساق الثقافية في شعر المتنبي

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير

إعداد الباحث

أبو القاسم سعد حسن علي

إشراف

الأستاذ الدكتور/ إبراهيم محمود عوض
أستاذ الأدب والنقد ـ قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

الأستاذ الدكتور/ عبد الناصر حسن محمد
أستاذ الأدب والنقد ـ قسم اللغة العربية وآدابها
وكيل كلية الآداب للبحوث والدراسات العليا ـ جامعة عين شمس

٢٠١٨م/١٤٣٩هـ

الفهرس

المقدمة ٣

التمهيد ١٠

الفصل الأول: المرجعية الثقافية لمقدمات القصائد العربية (النشأة والتطور)..... ٣٠

المبحث الأول: نشأة المقدمات ٣١

المبحث الثاني: مقدمات القصائد بين النشأة والتطور ٧٢

الفصل الثاني: الأنساق الثقافية في مقدمات قصائد المتنبي ٨١

المبحث الأول: مقدمات القصائد في فترة العراقيات الأولى ٨٤

المبحث الثاني: مقدمات القصائد في فترة الشاميات ٨٩

المبحث الثالث: مقدمات القصائد في فترة السيفيات ١٢٧

المبحث الرابع: مقدمات القصائد في فترة العضديات ١٥٧

المبحث الخامس: تحليل الأنساق وسؤال الثقافة ١٦٢

الفصل الثالث: الذات والآخر والثورة ١٧٨

المبحث الأول: الذات والآخر ١٧٩

المبحث الثاني: الذات والثورة ١٨٧

الفصل الرابع: سياق المدح وأنساقه الثقافية ٢١١

المبحث الأول: أنساق البطولة الحربية ٢١٧

المبحث الثاني: أنساق البطولة الاجتماعية ٢٢٩

المبحث الثالث: أنساق أخرى ٢٣٦

الخاتمة ٢٥٥

الملحق ٢٦٠

قائمة المصادر والمراجع ٢٧١

ملخَّص الدراسة باللغة العربية ٢٧٩

Study Abstract ٢٨١

المقدمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

كان للعصر العباسي الحظ الأوفر ـ دون العصور ـ في ازدهار الحضارة العربية وذيوعها، فقد انتشرت الثقافة العربية بكل فروعها في جميع أرجاء المعمورة؛ ثقافة حملت بين جنبيها مؤلفات متنوعة في مختلف العلوم، من خلال أئمة الفكر والعلوم والأدب لهذا العصر الذين وضعوا العلوم اللغوية والدينية، وأيضًا من خلال نقل علوم الشعوب المستعربة.

ولا يُعد شعر المتنبي صورة حية للعصر العباسي في أواخره فحسب، بل يُعد موسوعة معرفية، وتاريخية، وأدبية، لذلك العصر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه يمثِّل تجربته الشعرية؛ إذ عبَّر بشعره عن موقفه من ثقافة عصره، وموقفه من السلطات التي تتحكم في تلك الثقافة وتوجهها، وذلك بصياغة فنية اتسمت بقوة التعبير، النابعة من قوة نفس الشاعر الطامحة إلى المجد، والثائرة على كل مظاهر الضعف وأولها النظم السياسية والاجتماعية، متخذًا من أنساق الثقافة العربية ـ عبر سياقاتها المتعددة ـ نموذجًا ومرجعية لمشروع ثقافي، يسعى من خلالهما إلى تقويم ما رآه معوجًا في واقعه المعيش، وتحقيق طموحاته وآماله.

أسباب اختيار الموضوع:

أ- كان شعر المتنبي وليدًا لعصر شهد ازدهارًا حضاريًّا وثقافيًّا وأدبيًّا، وهو العصر العباسي الثاني، أو كما يسميه بعض الباحثين بعصر الدول والإمارات، وقد جاء شعره مجسِّدًا لمرحلة مهمة من مراحل الأدب العربي عمومًا، ومن التاريخ الإسلامي على وجه الخصوص؛ إذ شهدت هذه المرحلة نهضة ثقافية في مختلف فروع الثقافة العربية، وأهم هذه الفروع هو الشعر الذي أبدع فيه المتنبي، وما زال شعره يشغل الناس إلى يومنا هذا؛ فكانت دراسة شعره ضرورة للوقوف على السمات الثقافية لهذا العصر، والوقوف — أيضا – على الأبعاد التي تساعدنا في تفسير إبداعه.

ب- إن المتأمل للأسلوب الذي انتهجه أغلب شارحي ديوان المتنبي ليرى اطرادًا في طريقة الشرح؛ إذ لم تتجاوز مستويات شرح اللغة والإعراب، ثم نثرهم لبيت الشعر، مع استدعاء الشواهد الشعرية؛ استشهادًا على شرح لفظ غريب، وهي الطريقة التقليدية لدى الأقدمين، والتي ختمها عبدالرحمن البرقوقي، ولم يتعدها في شرحه لديوان المتنبي، وذلك دون النظر إلى عامل المؤثرات الثقافية التي تخللت تلك النصوص، وهذه الطريقة على قدر أهميتها في تجلية المعاني وفهم المراد من الأبيات، فإنها في الوقت نفسه لم تعد تلبي حاجة الباحث والناقد في ظل ظهور مناهج نقدية يرى أن بمقدورها أن تضيف أبعادًا أخرى يتم من خلالها تناول النصوص. من هنا تولدت الرغبة لديَّ في قراءة شعر أبي الطيب المتنبي قراءة ثقافية لا تقف عند حدود الأنساق التي تضمنها البيت الواحد أو القصيدة الواحدة فحسب، بل تتخذ من جملة الأنساق التي تضمنتها نصوصه الشعرية بنية متراصة ومتلاحمة، تمكننا من الوقوف على سياقات النص الثقافية.

ج- اختلاف النقاد قديمًا وحديثًا حول المتنبي، وشاعريته، وأفضليته، ومنطلقات ثورته العارمة، والجدل الذي دار حولها- كوَّن لديَّ الرغبة في السعي نحو اكتشاف ما يمكن أن يكوِّن لنا رؤية تضيء جانبًا من حياته.

هدف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على الأنساق الثقافية في شعر المتنبي، وتجلية ما ضُمِّن منها، مع تحديد مرجعيتها التي تنتسب إليها، والسياق الثقافي الذي أنتجها، والتحولات التي لحقت تلك السياقات، وكذلك الوقوف على تمثلات تلك السياقات في شعره، وكيف وظفها لتحقيق رغباته وآماله، وإلى أي مدى أثرت سلطة السياقات الثقافية في رغبات المتنبي وآماله، وإلى أي مدى تتفق أو تختلف النتائج التي يسفر عنها التحليل الثقافي للنصوص والحقائق التي سجلها لنا التاريخ الاجتماعي، والأدبي، والثقافي، والسياسي لعصر المتنبي؟ وهل يمكن لمنهج النقد الأدبي الثقافي - بما توفر له من أدوات تمنحه مجالًا أكثر حرية في تناول النصوص - أن يقدم جديدًا يؤيد أو يعارض تلك الحقائق؟ وهل باستطاعته رصد التطورات التي تلحق

السياقات الثقافية المتأصلة في الثقافة العربية والإسلامية منذ نشأتها وصولًا لتمثلها في الإبداع الشعري للمتنبي؟

صعوبات الدراسة:

يحتاج الباحث الذي يتخذ منهج النقد الثقافي في تطبيقاته على النصوص إلى قراءات في مجالات وحقول علمية متعددة: (اجتماعية، ونفسية، وتاريخية،....)، تمكنه من استخراج الأنساق بحرفية؛ لكي لا يخرج تحليله للأنساق سطحيًّا أو مشوَّهًا. مما حدا بالباحث إلى أن يتزود ـ قدر الإمكان ـ بقراءات في حقول معرفية متنوعة؛ بغية الوصول إلى مقاربة ثقافية لنصوص المتنبي الشعرية.

منهج البحث:

يتوفر لدى منهج النقد الأدبي الثقافي من الآليات ما يجعله مناسبًا للدراسة التي نحن بصددها؛ إذ لا يتوقف في تحليله للنصوص عند جانبها الجمالي فحسب، بل يتعداها ليرصد علاقة تلك النصوص بالعقائد ومنظومات القيم، والمؤثرات التاريخية وخلفياتها السياسية، والاجتماعية، والفكرية، وذلك من خلال الانطلاق من النص بتحديد أنساقه الثقافية، وربطها بسياقاتها، مع تأكيد ضرورة الاحتراز من تحميل النصوص ما لا تحتمله.

الدراسات السابقة:

إن منهج النقد الثقافي منهج حداثي، وتطبيقاته على تراثنا العربي في وقتنا الحالي قليلة، وإنه لم يسبق – في حدود بحثي – أن طُبِّق هذا المنهج على ديوان المتنبي بوصفه نصًّا ذا لُحمة واحدة، وقد وقفت ـ في هذا الصدد ـ على ما تعرض له الدكتور عبد الله الغذامي من بعض أبيات المديح في قصيدة المتنبي (وا حر قلباه)، بوصفها نموذجًا للتطبيق على الجمل النسقية، وذلك دون استقصاء لأبعاد سياقية متعددة – ربما تكون أكثر دلالة وعمقًا – تقف خلف هذا المديح، وهذا ما أحاول الوقوف عليه من خلال تطبيق المنهج – قدر الاستطاعة– على شعره.

مادة الدراسة:

اعتمدتُ في بحثي هذا على ديوان "أبي الطيب المتنبي" – تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام، الذي أخرجته لجنة التأليف والترجمة والنشر، بالقاهرة (١٣٦٣هـ) – في تخريج الأبيات،

واستعنت ببعض الشروح المعتمدة في شرح الديوان، وفي مقدمتها مُعْجِز أحمد المنسوب لأبي العلاء المعري، تحقيق: الدكتور عبد المجيد دياب، الذي نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب، بالقاهرة، ٢٠١٢م، كما اعتمدت على مدونة واحة المتنبي الحاسوبية على شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت)، وقد تضمنت معظم شروح ديوان المتنبي.

هذا ما يتعلق بالدواوين، أما ما يتعلق بمادة البحث، فقد اعتمدتُ في الفصل الأول – الذي قام على تحديد المرجعية الثقافية للقصيدة العربية التقليدية – على شرح المعلقات السبع للزوزني، الذي نشرته الدار العالمية ببيروت ١٩٩٣م، واعتمدتُ في الفصل الثاني المتعلق بمقدمات القصائد عند المتنبي على تلك المقدمات التي تضمنت النسق الطللي؛ وهذه المقدمات وإن مثلت استقصاءً للنسق الطللي في مقدمات قصائد الديوان من جهة فإنها – في الوقت نفسه – مثَّلتْ عينةَ بحثٍ لمجمل الأنساق التي تضمنتها مقدمات القصائد من جهة أخرى.

أما الفصل الثالث والرابع فقد قامت مادتهما على تتبع الشواهد المشتملة على الأنساق التي تضمنها الديوان، وذلك بالقدر الذي يدلل على الفكرة التي قام عليها كل فصل منهما.

خطة الدراسة:

اقتضت الدراسة تقسيمها إلى: مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة.

أما التمهيد فقد عالجت فيه مفهوم الثقافة نشأة وتطورًا في كلٍّ من الثقافة الغربية والعربية، ثم تناولت مصطلح النقد الثقافي وعلاقته بالدراسات الثقافية، والتلقي العربي للمفهوم، ثم عرَّفت المنهج إجرائيًّا، ثم حددتُ إجراءات البحث المنهجية، ومصطلحات الدراسة، وحررّتُ مفاهيمها، وانتهيت بالإشارة الموجزة إلى نشأة المتنبي، وأبرز محطات حله وترحاله، وأشهر ممدوحيه الذين قصدهم، حتى الموضع الذي وقف عنده ترحاله، ووافته فيه المنية.

وفي الفصل الأول وعنوانه: المرجعية الثقافية لمقدمات القصائد العربية، فقد تضمن مبحثين؛ الأول: نشأة المقدمات، والثاني: مقدمات القصائد بين النشأة والتطور، وفيهما أعدت قراءة مقدمات القصائد العربية – نشأة وتطورًا – في ضوء السياق الثقافي الْمُنْتِج لها، بما تضمنه من أنساق، ومن خلال عرض أبرز تفسيرات النقاد لها – قدامى ومحدثين – مع مناقشة هذه التفسيرات بالقدر الذي يسهم في تكوين تفسير أكثر شمولية؛ يجمع تحت مظلته تلك الأنساق المختلفة التي احتوت عليها المقدمة، ويفسر في الوقت نفسه استمراريتها عبر العصور المختلفة،

ويطرح خلال ذلك آلية لتناول المقدمات بالدراسة.

أما الفصل الثاني: فقد تناولت فيه الأنساق الثقافية في مقدمات قصائد المتنبي، ولا سيما (نسق الطلل)، الذي تم استقصاء مواضعه في تسع عشرة مقدمة من مقدمات القصائد لدى المتنبي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى مثَّلت تلك المقدمات عينة بحث في مختلف الأنساق الأخرى التي تضمنتها، مثل: (حضور الشاعر، والأثر النفسي، والمرأة، والثقافة الدينية، والقيم، والواقع البيئي، والنسق الْمُضَمَّن)، وجاء الفصل في خمسة مباحث مثلت أربعة منها المراحل التي نُسبت إليها قصائد المتنبي، سواء أكانت نسبة إلى البلدان والأقطار، أم كانت نسبة إلى ممدوحيه، وقد اقتصر الاختيار على المراحل التي تضمنت النسق الطللي فحسب. وجاء المبحث الخامس متضمِّنًا تحليلًا للصورة التي كوَّنها كل نسق على حدة، والدلالة التي تكمن خلفها، والأسئلة الثقافية التي تطرحها في هذا الصدد، وقد جاءت المباحث كالآتي:

المبحث الأول: مقدمة القصائد في فترة العراقيَّات الأولى. والمبحث الثاني: مقدمة القصائد في فترة الشاميَّات. والمبحث الثالث: مقدمة القصائد في فترة السَّيفيَّات، والمبحث الرابع مقدمة القصائد في فترة العَضُدِيَّات. وخلت فترة الكافوريَّات والعميديَّات من النسق الطللي، والمبحث الخامس: تحليل الأنساق وسؤال الثقافة.

ويأتي الفصل الثالث بعنوان: الذات، والثورة، والآخر، ويتضمن مبحثين؛ المبحث الأول: الذات والآخر، وتناولت فيه الأنساق الثقافية المتعلقة بثورة المتنبي، مثل: (الموت والحياة، وعلو الهمة، والفروسية والشجاعة)، وربطتها بسياقها الثقافي المتمثل في الفُتوة والبطولة العربية الثائرة والطامحة للسيطرة والملك، مع تحديد المرجعية الثقافية لهذا السياق، والتحولات التي لحقت به.

أما الفصل الرابع والأخير فعنوانه: سياق المدح وأنساقه الثقافية، ويتضمن تمهيدًا وثلاثة مباحث؛ وقد تناولت فيه السياق الثقافي للمدح، ورصدت تحولاته عبر العصور السابقة على المتنبي، ثم تناولت أبرز الأنساق الثقافية التي تضمنتها قصائد المديح عند المتنبي؛ ففي المبحث الأول: تطرقت إلى أنساق البطولة الحربية، وتناولت منها: نسق الأسد وأسماءه، ونسق المنعة الذاتية. وفي المبحث الثاني: تطرقت إلى أنساق البطولة الاجتماعية، وتناولت منها: نسق الكرم، والبحر، والسحاب، والغيث، والأُعطية. وفي المبحث الثالث: تطرقت إلى أنساق أخرى؛ مثل:

أنساق القداسة التي تناولت منها: نسق الدهر، والسجود والخشوع، والمبالغة في الوصف، والنفع والضر، والدعاء والاستغاثة، والعطاء والمنع، والموت والحياة، والْمُلك والسطوة، والتفرد بالخيرية، والشمس والقمر والبدر – وأنساق الصعلكة التي تناولت منها: نسق السفر والترحال وانعدام الوطن، والغربة والوحدة وانعدام الصحب، والحنين إلى الأهل والوطن، وانتهيت بنسق نسيان الغاية في مقابل الركون إلى التنعم. وقد شكلت هذه الأنساق في مجملها التحول السياقي الذي انتهى إليه مشروع المتنبي.

أما الخاتمة: فقد رصدت فيها أهم النتائج التي توصلتُ إليها من خلال البحث، ثم يعقب هذه الخاتمة ثبت المصادر والمراجع التي استعنتُ بها.

التمهيد

تمهيد

أولًا: مفهوم الثقافة: النشأة والتطور

يعد مفهوم الثقافة من المفاهيم الإشكالية؛ إذ تعددت دلالاته نتيجة للتطور الذي لحق به تاريخيًّا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لتوزعه بين فروع ومجالات معرفية متعددة، ولعله من المفيد أن نتطرق إلى نشأة المفهوم والتطورات التي لحقت به؛ حتى يتحدد لنا إطاره المرجعي.

تعود كلمة ثقافة Culture إلى اللاتينية، وتعني حرث الأرض وتنميتها، ولعل شيشرون أول من استخدمها بمعناها المجازي، الذي شاع فيما بعد حين أطلق على الفلسفة اسم Mentis Cultura؛ أي زراعة العقل وتنميته، وقد استعار فولتير وأقرانه من المفكرين الفرنسيين استخدام شيشرون المجازي حتى باتت الكلمة تعني تنمية العقل وغرسه بالذوق والفهم وتزيينه بالمعرفة، وغير ذلك مما تشتمل عليه كلمة ثقافة، ثم انتقلت الكلمة بمعناها الجديد من الفرنسية إلى الألمانية Kultur والإنجليزية وسائر اللغات الأوروبية[1].

ويقتصر مفهوم (Culture) على مدلوله الفني والأدبي المتمثل في الدراسات التي تتناول التربية والإبداع، وذلك خلال عصر النهضة، ويفرد فلاسفة القرن السابع مضمارًا خاصًّا للقطاع الثقافي في محاولةٍ منهم لتطبيق المناهج العلمية في دراسة المسائل الإنسانية، كما اعتمد فرانسيس بيكون – في كتابه «تقدم المعرفة» – صورة التثمير الزراعي للدلالة على أحد مرامي الفلسفة الماثل في عملية التثقيف. ويستعمل توماس هوبس كلمة (تثقيف) بمعنى العمل الذي يبذله الإنسان لغاية تطورية، مميزًا بين التثقيف الذي يتناول القطاعات المادية، والتثقيف الذي يطال المضمار النفسي؛ كالنشاط التربوي مثلًا، أو التعمق في المسائل الإيمانية[2].

وتكون دلالة المفهوم بذلك هي: الغرس والزراعة والتنمية،...إلخ، سواء أكانت على المستوى المادي المتعلق بالأرض والزراعة وما شابه ذلك، أم على المستوى المعرفي المتعلق بالعقل، والفكر، والذوق، والتربية، والإبداع.

---

(١) انظر: معن زيادة، معالم على طريق تحديث الفكر العربي، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١١٥، الكويت، ١٩٧٥م، ص٤٩، ٥٠.

(٢) انظر: معن زيادة، (رئيس تحرير)، الموسوعة الفلسفية، معهد الإنماء العربي، ط١،بيروت، ١٩٨٦م، ص٣١٢.

ويتطور مفهوم الثقافة مع إدوارد تايلور (١٨٣٢ – ١٩١٧م) **الأنثروبولوجي** البريطاني في كتابه «الثقافة البدائية»؛ إذ يعرفها بأنها: «ذلك الكل المركب، الذي يشمل: المعرفة، والعقائد، والفن، والأخلاق، والقانون، والعرف، وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوًا في مجتمع»[١].

وفي إطار **التصور الوضعي الاجتماعي**[٢] ينظر عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم (١٨٥٨م . ١٩١٧م) في كتابه «قواعد المنهج السوسيولوجي» للثقافة على أنها ظاهرة اجتماعية ومكون وواقع اجتماعي كشيء (chose) لا حياة ولا حركة في داخله، غير أن تصوره الوضعي لدراسة الظواهر الاجتماعية سيدعو – بشكل غير مباشر – المهتمين بدراسة الثقافة بوصفها أبرز ظاهرة اجتماعية، والمتأثرين بمنهجه إلى استبعاد معالمها الداخلية أو الروحية وانعكاساتها على سلوك الفرد وتغير المجتمع، كما طرحه في أعماله الأولى، التي كانت تتسم بأنها مادية. بينما سينحو منحى مثاليًّا في أعماله اللاحقة، وخاصة في كتابه «الأشكال الأولية للحياة الدينية»، مبرزًا فيه دور الأفكار الدينية والأخلاق والقيم بوصفها الحجر الأساس في أي نظام اجتماعي، وليست العوامل المادية كتقسيم العمل؛ فالثقافة هي التي تشكل المجتمع وليس العكس[٣].

ولا يولي **الفكر الماركسي** أهمية كبرى للثقافة بوصفها عاملًا مؤثرًا في سلوكيات الأفراد وتغير المجتمع؛ فالثقافة لا تعدو كونها (بنية فوقية)، وفرعًا من فروع (البنية التحتية)، التي هي البنية الاقتصادية والاجتماعية ذات الأساس المادي؛ أي أنه يعطي الأولوية والحسم للعوامل

---

(١) أيكه هولتكرانس، قاموس مصطلحات الأنثولوجيا والفولكلور، ترجمة: محمد الجوهري، وحسن الشامي، دار المعارف، القاهرة، م١٩٧٢م، ص١٤٤.

(٢) هي أولى المدارس الفلسفية في العصر الحديث التي اتخذت موقفًا نقديًّا من فلسفة القرن التاسع عشر التي حلَّقت في سماء الفكر المجرد، فبعدت عن الواقع المحسوس، ومن ثم جاءت هذه المدرسة ردًّا عنيفًا عليهم... ورأت أن البحث لا ينبغي أن يتعدى دراسة الواقع المحسوس دراسة قائمة على التجربة والاستقراء. (انظر ويكيبيديا الموسوعة الحرة على شبكة الإنترنت).

(٣) انظر: دفيد إنغليز وجون هيوسون، مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة، ترجمة: لما نصير، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، بيروت، ٢٠١٣م، ص٥٦.

الاقتصادية للدول، وتأسيسًا على ذلك يطرح (ماركس) ضرورة دراسة البنية التحتية لفهم المجتمع، وهي تعبر عن نفسها عبر البنية الفوقية؛ ومن ثم ينتج عن البنية التحتية بنيةٌ فوقية ثقافية ملائمة لها[١].

وعلى عكس هذا التصور يتبنى **ماكس فيبر** (١٨٦٤م-١٩٢٠م) - أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث - موقفًا يشدد على ما للعوامل الثقافية من تأثير في تغيرات المجتمعات وتحولاتها؛ فالقيم الدينية البروتستانتية هي عوامل أساسية أدت في اعتقاده إلى ظهور الرأسمالية المعاصرة بوصفها ظاهرة اقتصادية في المجتمعات الغربية[٢].

وتظل الإحاطة بمفهوم الثقافة (Culture) والإلمام بكل أبعاده شيئًا عسيرًا في ظل تعدد التعريفات التي تناولت المفهوم من منظور الفكر الغربي، وطبيعة تطوره وتشعبه في مختلف العلوم الاجتماعية. ولعل ما سبق عرضه من تعريفات للمفهوم يضع - من جهة - إطارًا للمدلولات الأساسية للمفهوم نشأةً وتطورًا، ومن جهة أخرى يشكل خلفية لتناول مفهوم الثقافة في انتقاله إلى العربية.

ثانيًا: لفظ الثقافة في اللغة العربية

تُشتق كلمة الثقافة من الجذر اللغوي (ثَقِفَ)؛ ففي لسان العرب: ثَقِفَ الشيءَ ثَقْفًا وثِقافًا وثُقُوفةً: حَذَقَه...، ورجُل ثَقْفٌ لَقْفٌ إذا كان ضابِطًا لما يَحْوِيه قائمًا به... وهو غلام لَقِنٌ ثَقِفٌ؛ أَي ذو فِطْنةٍ وذَكاء، والمراد أَنه ثابت المعرفة بما يُحتاجُ إليه. وفي الصحاح: ثَقُفَ الرجل ثَقْفًا وثَقافَةً، أي صار حاذقًا خفيفًا فهو ثَقْفٌ. ومنه الْمُثاقَفَةُ. والثِّقافُ: ما تُسَوَّى به الرماحُ. وتَثْقيفُها: تسويتها[٣].

وهكذا، فإن دلالات مفهوم الثقافة في أصلها العربي - وبحسب ما جاءت به المعاجم

---

(١) انظر: دفيد إنغليز وجون هيوسون، مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة، ص٤١.

(٢) ماكس فيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ترجمة: محمد علي مقلد، مركز الإنماء القومي، بيروت، د ت، ص١٩٨.

(٣) انظر: ابن منظور، لسان العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،٢٠١٤م. وانظر: الجوهري، الصحاح، دار العلم للملايين، ط٤، بيروت، ١٩٩٠م، مادة (ثَقَفَ).

العربية، وكما استنتجها الدكتور نصر محمد عارف – تضمنت «مجموعة من الدلالات نجملها فيما يأتي:

أ- إن مضمون مفهوم الثقافة في اللغة العربية ينبع من الذات الإنسانية، ولا يغرس فيها من خارج؛ فالكلمة تعني تنقية الفطرة البشرية وتشذيبها، وتقويم اعوجاجها، ثم دفعها لتوليد المعاني الجوانية الكامنة فيها، وإطلاق طاقتها لتنشئ المعارف التي يحتاج إليها الإنسان.

ب- إن مفهوم الثقافة في اللغة العربية يعني البحث والتنقيب والظفر بمعاني الحق والخير والعدل، وكل القيم التي تُصلح الوجود الإنساني وتُهذبه وتُقوِّم اعوجاجه؛ فهو مفهوم يفتح الباب أمام العقل البشري لكل المعارف والعلوم النافعة الصالحة، ولا يُدخل فيه تلك المعارف أو العلوم أو القِيَم التي تُفسد وجود الإنسان ولا تتَّسق ومقتضيات التهذيب والتسوية وتقويم الاعوجاج.

ج- إنه يركز في المعرفة على ما يحتاج الإنسان إليه طبقًا لظروف بيئته ومجتمعه، وليس على مطلق أنواع المعارف والعلوم، وإنما -كما يقول ابن منظور -: «غلام لَقِنٌ ثَقِفٌ: أَي ذو فِطْنةٍ وذَكاء، والمراد أَنه ثابت المعرفة بما يُحتاجُ إليه»[1].

وهذا يربط مفهوم الثقافة بالنمط المجتمعي الذي يعيش الإنسان في ظله، وليس بأي مقياس آخر يقسم الثقافات قياسًا على ثقافة معينة، مثل مفهوم culture القائم على الغرس والفرض والمعيارية في التعامل مع الثقافات الأخرى، فاللفظ العربي يعتبر الإنسان مثقفًا طالما هو ثابت المعرفة بما يحتاج إليه في زمانه وعصره ومجتمعه وبيئته؛ ولذلك يكون المثقف ـ أشد ما يكون ـ مرتبطًا بمجتمعه وقضاياه بغض النظر عن كم المعارف والمعلومات المكدَّسة في ذهنه، التي قد تكون أفكارًا ميتة أو مميتة ،كما يقول مالك بن نبي...

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ثَقَفَ).

د- إنها عملية متجددة دائمة لا تنتهي أبدًا، فهي لا تعني أن إنسانًا أو مجتمعًا معينًا قد حصَّل من المعارف والعلوم والقيم ما يجعله على قمة السلم الثقافي، أو أنه وصل إلى الغاية القصوى، وإنما دلالات التهذيب والتقويم تعني التجدد الذاتي؛ أي تكرار التهذيب، ومراجعة الذات وتقويمها، وإصلاح اعوجاجها.

هـ- إنه مفهوم لا يحتمل في ذاته أحكامًا قيميَّة تحدد نوعية الثقافة هل هي متأخرة بربرية وحشية رجعية، أو متقدمة عصرية نيرة... إلخ؛ ذلك أن منطلق مفهوم التهذيب يجعل من جميع الثقافات طبقًا لقيم مجتمعاتها وظروفها على الدرجة نفسها من القيمة الإنسانية.

و- إنه مفهوم غير مقيد أو مخصص، فهو عام للإنسان والجماعة والمجتمع، ويشتمل على جميع أنواع الممارسات الإنسانية ومختلف درجاتها، ويعطي دلالاته على أي مستوى تحليلي يُستخدم فيه، طالما تحقق مطلق التهذيب والتقويم»[1].

وهكذا يتضح لنا ابتداءً اختلاف مدلولات لفظة (ثقافة) في اللغة العربية، عن تلك الدلالات التي يحملها المفهوم في اللغة الإنجليزية، مما يؤدي إلى التساؤل عن الظروف التي انتقل فيها المفهوم إلى العربية، بدلالاته الأوروبية.

وقد تنبه مالك بن نبي لهذا الأمر، وأشار إلى ما يُفهم منه أن ناقل المفهوم إلى العربية في لفظة (ثقافة)، ومَن دأب على استخدامه في كتاباته- على وعي بمدلولاته الأوروبية، ويدلل على ذلك بأن "الكُتَّاب يقرنون دائمًا كلمة (ثقافة) بكلمة (culture) مكتوبة بحروف لاتينية... ومعنى هذا أنهم يدركون أن الكلمة لم تكتسب بعد في العربية قوة التحديد، مُعلنًا استغرابه من الكاتب الذي صاغها من بين عدد من الأصول اللغوية، مثل: (علم - أدب - فهم – أدرك - ثقف)، تلك الكلمات التي تدل على العمل أو العلاقة المعرفية، ويدعو إلى

(١) نصر محمد عارف، الحضارة-الثقافة-المدنية، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، عمان، ١٩٩٤م، ص٣١:٣٣.